مصطفى عطية جمعة
طَفْحُ القَيْح
قصص قصيرة
الحضارة

مجموعة قصصية

طفحُ القَيْح

د.مصطفى عطية جمعة

منشورات مركز الحضارة العربية– القاهرة – ٢٠٠٥

عِـــــــراك

بسطتْ طرحتها على حجرها، سوّتْ بأصابعها نتوءات شعرها،دبيب الصداع مع تسلط أشعة الظهيرة،آليتهافي المناداة على " الشمام و العنب ". تصرخ في ابنها بدوي أن يوقظ أباه. يقدم الصغير ببطيخة تسيل احمرارًا على جلبابه المتسخ.

تثاؤب الأب، سباب متقطع، يده تمتد للقلة الساخنة المركونة فوق أحد الأقفاص بالدكان. ذراعاه في جلبابه المعلّق، لاسته وطاقيته..، مناداته على امرأته، تستقر محفظته المنتفخة في جيب الصديري،

ترسل له ورقة السندويشات، إشارتها لبائع الشاي المتجوّل بصينيته.

قضماته، ورشفاته، وجنتاه المتهدلتان بفعل السهر والحشيش. نفخ بقرف نحو زوجته.

* * * *

" أم وليد " العايقة، تسكن وراء السوق، زوجها في السعودية.سمسمة وجهها تبرز من طرحتها، وقد تعلّق ابنها بملاءتها وهو يمتص حبة مانجو.

تنقلت بين البائعات حتى أم بدوي، بحلق فيها الزوج.

بكم كيلو الشمام ؟

نبيع بالحبة، وليس بالكيلو.

كل السوق يبيع بالكيلو..

أنا أبيع على كيفي، أنتِ ولية .....

فردت أم وليد ملاءتها، هبّتْ أم بدوي من وراء شمامها، قبضتها على حديد الميزان. بدوي ممسكًا بوليد. بحلقة الزوج في غريمة زوجته.

زحمة السوق، ركلات وشتائم و"شباشب"، يتمزق كتف أم وليد. يختلط سائل البطيخ مع اصفرار المانجو. عيناه مثبتتان على الكتف المكشوف. يتداخل مبعدًا امرأته. تدفعه، يده على قفاها، تنقلب :

يا واطي ...، أنا من فجرية ربنا، وأنت آكل، شارب، نائم و .....، وراسم نفسك معلم بفلوسي.

هائج نحوها، شلّحت ملابسها : - زهقتَ مني ؟

تناثر هرم الشمام، صفعاته، شتائمها. قالت إحدى البائعات : " كل أسبوع لهما عركة ".

* * * *

الليل، أنفاس الحشيش في دكان مهجور، ينفخ بزهق. تنفس الفجر، يتمايل إلى دكان امرأته. موضعها بين الأقفاص، يزيح ابنه. سباب مع لمسات الأيدي. " غير معقول أن أرجع بائعًا للثوم في السوق.." الاحتكاك المتقزز.

كـأن ســـــهام تغــنـي..

زخات المطر على زجاج النافذة بجواري، رناته على أرضية الممشى خارج الفصل، غيومها استشعرتها منذ الطابور ، على وجنتيّ، وأصابعي المجمدة بحذائي. رنين جرس الفسحة. تحاورالبنات بأحداقهن. عصاة الأبلة صفيحة " صبيحة ". إنذارها بعدم نزولنا. " لن أفرد جدائل شعري تحت الرذاذ و لن يسيل في خطوط لجبتهي وشفاهي. لن أرى سهام، أختي العفريتة " مصروفي معها ؛ لأنها تكبرني. خيوط المطر في الساحة الخالية، لن آكل اليوم. البنت " شادية " زميلتي، لن تعطيني قضمات من سندويتشها.

أمي تهرول معنا في البكور قبل أن تطولها سباب رئيسة الفراشات في المستشفى. قروشها وقبلات دافئة، البنات يأكلن.

ألمح ... " سهام "، تحت الزخات، في الساحة، مفرودة جدائلها،تركض إلى باب المدرسة الخلفي.

كأنها تغني، غنوة " المطرة " :

" يا مطرة رخي رخي على قرعة البنت أختي "

ستشتري سندويتشات الفول من عربة عم " أحمد " وراء السور. كيف هربت من فصلها ؟ لو لمحتها الناظرة ....

رأسي على الطاولة. الغذاء، الحلة التي تتوسط الطبلية، أمي تغرف، نسبقها أنا وسهام بلقماتنا، نكبش وتتخضب أصابعنا. هل ستحضر لي سندويشًا ؟

طرقات على باب الفصل. أنياب الأبلة. إنها العفريتة !. كلامها المتمايل بخنوع. تشير نحوي. ارتخاء وجنتي الأبلة. " حبوبة أبلتي ". تجري نحوي سهام. سندويتشان ساخنان. قطرات من جديلاتها على خدي. " يا مطرة رخي رخي .... ".

ضـــياء اللـــذة

(١)

الهجعة الليلية التي يستلزمها الجسد، وتسبح روحي في فضائها، لا أعرف كينونتها، سوى تلك الأخذة التي تجذب روحي، من عالم الأحياء،و الحركة والثرثرة، إلى سُبات الجسد. هل الروح تسكن أيضًا ؟ لا أذكر، من هجوعي – في ليلتي تلك – إلا هذا التماوج الذي عايشته، وجوهًا ...، نعم.. نعم..، لمن أعرفهم، أحبهم. أبي، أمي، جدي ....، كانوا يبتسمون لي، يضحكون، تمدّ أمي يديها لي.

أُفْعَمُ بنشوة وراحة، لذةٍ أستشعرها، وكأن خلاياي تنطلق في ملكوت سرمدي.

.....

هدأة الليل، النفوس ، هل تسكن الأرواح ؟

أضع المفتاح في باب المسجد، أضغط زرًا فيتوهج مصباح. آيات القرآن، تنساب بحنجرتي، رطبة، والفؤاد عائم.

أصدح بالآذان. يأتي عم عبد الرزاق :

صوتك خافت اليوم يا عبد الحميد ؟!

إنه مثل كل يوم.

يتفحصني بعينيه، يصمت، ويترنم بجواري بأوراده الصباحية. قلتُ :

ماذا بك ؟

تطلع نحوي، عيناه غائمتان :

-أنتَ ماذا بك ؟

صمتي، قلبي منتشٍ. يردف :

-سلّم عليهم.

.....؟ !

غاص في تسبيحاته.

اصطففنا للصلاة.

قالوا لي وهم يصافحونني أمام المسجد :

-أطلتَ السجود كثيرًا ؟!

أخذني الرجاء.

.....

استيقظتْ أختي، وأنا ألج البيت. قالتْ :

-صبحك الله بالخير.

- الخير كله لكِ.

- ستفطر ؟

.....

تحرّكتْ، متحسسةً ما حولها، تحفظ أركان البيت، انزويت في غرفتي، خرخشة يديها وهي تغسل الآنية، وتحرّك الوابور.

استلقيتُ على الكنبة، أسندتُ رأسي، النشوة تتجاذبني، تغرقني، كانوا يبتسمون، ابتسمتُ، أسبح في طاقات نورانية، أتحرر من ربقة الجسد، أتلاشى..، الملكوت يسعني، أصافحهم.

(٢)

-عبد الحميد ! الفطور..

أكرر مناديةً عليه، لا يحلو الفطور إلا به، سيحكي لي عما ينوي فعله اليوم، أتحسس الخبز الساخن، وطبق الجبن القريش والعسل..

-عبد الحميد ! قم، الفطور..

أخذه النوم ؟ أتحرّك، أدفع باب الغرفة، صوت خطوي يطرق أذني.

-عبد الحميد..، قم يا أخي..

أتحسسه.

صمتي.

الجسد نصف بارد، جبهته تترقرق بعرق متجمد.

-فعلتها يا عبد الحميد ؟ فعلتها.. !

الوحدة تتماثل أمامي، أودُّ الصراخ، أصرخ، الصوت بلا صدى. الخواء في أعماقي.

(٣)

الضجيج والزحام. الناس متجمعون أمام المنزل.

-كان لا يزال في عزه.

- صلّى بنا.

آخرون في ركن وهم جالسون على المقاعد الخشبية المستأجرة :

-لم يتزوج، وعاش من أجل أخته الضريرة.

- ربنا أعطاه من التجارة كثيرًا.

-يده لم تخرج فارغة من جيبه.

-النسوة متشحات بالسواد. يقلن :

-عجيبة أخته، لم تنحْ عليه، فقط الدموع، ولا حتى صرخة !

.....

تقول أخته :

-ظننته نائمًا على الكنبة كعادته وهو يسبّح، سبقتني ، وفعلتها، كنتُ أمني نفسي بأنك لن تفارقني، وأنا أكبرك في السن، وستحملني إلى ...

.....

عم عبد الرزاق المطرق تحت شجرة الكافور، أمام البيت :

- شفتُ البشرى في عينيه، قلتُ: عقبا لي.

رأس بارز

تتحرك منحدرة من فوق مرتبتها، تجرّ رجلها الفاقدة الحياة، وبيدها تضبطها كلما زحفت. صرير باب الغرفة المكتوم، درجتا سلم حجري تواجهها، وبصيص من ضوء البكور، تطالع الملح المتكلس على الحجر والجدران. تلتقط أنفاسها، تحبو، الدرجة الأولى، ثم الثانية، رجلها معلقة لأعلى، تسحبها بتأوه خافت. تتشبث بثنيات الباب الخارجي للبيت، تحرّك المزلاج.

أطلّ رأسها، البكور، زقزقة العصافير، الأرجل تدب في الشارع. يهدمون بيت " نبوية أم شعبان "، كانت هي وكل إخوتها، بنسائهم وعيالهم..، الأطلال تنحسر عن مساحة صغيرة. كيف كان تجمعهم تلك الجدران ؟ منذ أن ماتت نبوية، تفككوا، وصفّى الصغير البيت لنفسه.

عمارة الحاج " جلال "، خمسة أو ستة أدوار..، ترفع بصرها تعدها..، سبحان العاطي، كان مرمطونًا عند المرحوم زوجي.

* * *

من الشرفة، تقول " أم سيد " :

-شوفي الحاجة " تحيات "، اشتاقت للشارع.

ترد ابنتها :

-أسمع عنها..

- مريضة منذ سنين، وحبستها ابنتها " أحلام " في غرفة تحت السلم.

* * *

من بُعدٍ، طالعتها إحداهن، وكانت تسير في الشارع، حاملة قفة خضار :

-شافت أيامًا مع زوجها المعلم " محي "، عزًا وذهبًا.

رفيقتها، تنظر للرأس البارز :

-دوام الحال من .....

أنجبتْ له خمسة رجال وبنتًا واحدة.

- وأين هم ؟

- كل واحد تسيّره امرأته.

* * *

الرأس البارز يستند للباب، أنهكه التطلع، بعدما ارتفعت العمارات حاجبة أشعة الشمس، "الحارة الضيقة نفق ملتوٍ، يمتليء بالدراجات البخارية المركونة أمام الأبواب ".

كنت أجلس كل ليلة على العتبة قدام بيتي، وبجواري قلة المياه التي يفوح منها النعناع، وكوب الشاي، وأنادي على جاراتي، ونسمر باللب والذرة المشوية ...، لا مكان لي بين هذه الأعمدة والعمارات. يتراجع الرأس البارز.

* * *

الجارة ثانية لابنتها :

-" أحلام " بنت " تحيات "، على كل بياضها وشعرها " السايح" ، ركنت جانب أمها بعد زوجين.

-والسبب ؟

عقلها خفيف، وفلوس أبيها دلّعتها.

-تردف :

وزوجها الأول أخذ العيّلين منها. فعاشت تناكف أمها.

* * *

تلتقط أنفاسها، كأن درجتي السلم بناية عالية، رجلها ثقيلة كالدهر وهي تسحبها. ترتخي الأصابع، تتنسم هواءً من فرجة الباب، " تحمل النسمات رائحة الهدم ".

ربما تكون الذكرى أريجًا، يصاحبني في أويقات الزمن المتسحبة، وربما تكون المرتبة القطنية ألين من العمارات المتطاولة.

صوت " أحلام " :

- أين أنتِ يا وليّة ؟ حبوتِ مرة ثانيةً ؟!

السقا حي

- نبوية، خذي المياه.

من مجلسها أمام البيت، في بقعة الشمس، ترد :

- صب المياه في الزير، وما يتبقى في الطبق البلاستيك.

يتحرك حاملاً " زمزميتيه " الكبيرتين المعلقتين في خشبة على كتفه.

قالت : - فاكر أيام الصفيحتين يا " بدوي ".

- هل لابد أن تذكريني ؟

*****

قالتْ رفيقتها " أم سليم " :

- لماذا لا توصلين المياه مثل باقي الحارة ؟

- تحتاج فلوسًا كثيرة.

- ارحمي نفسك من السقا.

- مياهه كلها بركة.

*****

سألته : - كم بيتًا تعطيهم ماء ؟

- الرزق من ربنا.

- اشتغل في السوق، بعْ أي شيء.

- هل أبيع المياه في السوق ؟! لا أعرف غيرها.

*****

قالت له، وهي تستدفىء أمام المجمرة في ساحة البيت :

- أولادي وإخوتي، كلهم تركوني وحيدة، أنت الذي تطرق بابي كل يوم.

- البيت قديم، وحيطانه مشققة.

- الشقق الجديدة علب والنفوس أضيق.

- أنتِ مثلي، كلهم يسخرون من شغلتي.

سكت، متلذذًا بالوهج الساخن :

- لكن أبي الله يرحمه قال لي السقا خادم المياه، والمياه روح الجسم.

- لو متنا أنا وباقي العجائز مثلي، من سيشتري منك ؟

ضحك عاليًا، وقام حاملاً الزمزيتين الخاويتين.

*****

قابلها تحمل الفول والخبز :

- صباحك رائق يا نبوية.

ردت التحية، وأردفت :

- افطر معي، ألم تملأ رائحة الكمون خياشيمك ؟

.....

في ساحة الدار، قال وهو يقرّب رأسه من وابور الشاي :

- جاءني سكان عمارة الحاج " جلال ".

قالتْ يتؤدة : - لماذا ؟

- المياه لا تصل للشقق العالية. تكسرت أقدامي وأنا أصعد.

سكت، تهدج صوته :

- لمحت ابتسامتهم وأنا أمشي وسط الشقة على السجاد..، خافوا أن يتسخ من ملابسي وحذائي

- " معلهش ".. يا بدوي.

- بيوت زمان، كانت الأزيار جانب الباب الأرضي، ولم أكن أرى حرمة البيت.

تهدج صوته :

- قلت في نفسي : باب رزق وانفتح لك ...

قالتْ مبتسمة بفمها الخاوي من الأسنان :

- كنت تقول دائمًا إن السقا لازم يكون قلبه صافيًا مثل مياهه.

*

سقط الزمزميتان الكبيرتان، سال الماء وتجمع في حفرة بالحارة. كانت رفيقتها " أم سليم " تصرخ وسط ساحة بيتها. قال :

- دعوتك يارب أن تجعل يومي قبلها.

خـــــــواء لـــــيل

يتسرب الظلام من طاقة الحائط متحشرجًا، مزيلاً ببقايا ضوء المغربية. قرفه يتمدد في جبينه. تتراقص ذبالة مصباح الجاز. تقرفص من اضطجاعه، هرش في شعيرات ذقنه.

" الولية تأخّرت.." تلمس السيجارتين اليتيمتين في جيب الصديري. " كل هذا تزور أمها، داهية تأخذها مع أمها ".

اهتز وجهها المجعد - كطيف - على ذبالة مصباح الجاز، قامتها القزمية جانب طوله الفارع. همسات نسوة الحارة المتربعات أمام بيوتهن، حينما يسيران في أوبتهما في العصاري من السوق. انثناءة ظهره تقترب من قصر امرأته. تساعده في بيع الثوم والبصل. لعل نفخات سيجارته تتعمق نخاعه، لتسكن تنميل الصداع به.

الهلال - من الطاقة - مختنق بين سحابات الليل. ارتعاشة الذبالة لنسمات باردة. زفيره كالنحيب، تأفف لرائحة فمه المطبق، " الولية بنت ..... " كانت ثرثرتها تملأ الشقوق، وتطرد هوام الغرفة ،

تزاحم العناكب بضحكتها المحوفة، الكاشفة عن بقايا أسنانها.

الوحدة : خواء وسواد. دفقات سعاله، تدلّي لسانه. هل ارتكنت جوار أمها ؟ أين كفها المعروق الخشن، وهي تدعك صدره ليلاً ؟ وهمسها بالدعاء المكرور.

ذراعاه في جلبابه المعلق بمسمار في ظهر الباب. " هل قد .....؟ "

تضيق الحارة بأجساد النساء القابعات، وكلامهن. شريط القطار المتجه لأعماق الفلاحين. تتلوى أمعاؤه ليلاً على صفارته، وتمتمات " نفيسة " دعاءً على السائق والمحافظ الذي نقل الشريط الحديدي

وعرباته المتهالكة، بعيدًا عن فيلته.

وصل بيت ابن خالتها :

- أبا سيد، أبا .....

- نعم ...!

يرد من جلسته في الدور الثاني، دون أن يطالعه، يعلم أنه يتربع بسرواله فقط.

- نفيسة عندك ؟

- لماذا ؟

- كانت قد راحت المقبرة من أول النهار.

- قد تكون عند أم فتحي.

لم تهتز ترهلات جسد أم فتحي عندما دفع باب بيتها. تحركت جفونها من وراء نظارتها، كاشفة عن رمادية أحداقها. تساؤلها له، ثم حركة رأسها نفيًا.

الظلام جاثم بجنبات حارة أقاربها. من على عتبة بيتها، الذي يسد نهاية الحارة، قالت " أم حسني ":

- لمحتها أمام قبر أمها، حتى أنهيت زياراتي لأعمامي ولأبي، ولم تتحرك.

الجوع يتقلب بأمعائه. الأرغفة السمراء التي " تقمّرها " على " الكانون "، ودفء يتسرب لعظماته المتيبسة، حكاياتها عن السوق والحارة الممتزجة بالخبز المُحمّص وهو يتسمع الراديو ذي الأحجار.

نسمات الليل المتربة، تدلك بزيت الزيتون ركبتيه، وهي تهمس له، هل تُبتعث الشهوة فيهما ؟

تطاير العظام المفتتة. المقابر : انحناءات طرقاتها ونتوءات أحجارها التي تسد الغرف السفلية. حكايات أمه عن الجان ساكنيها. تقول " نفيسة " : - الجان لا يتجاور مع الصالحين.

ها هي مقبرتهم. أختها وأمها، منذ سنوات لم يخطُ عليها.

هل حرّكت الحجر الدائري، ودلفت ؟

كانت تجمّع خرقًا " لعلها تصلح كفنًا " إذا همدت أنفاسها فجأة، حتى لا يتحير في خرجتها.

تنبش أنامله، ربما يجدها أو " أتمدد جوارها ".

تلـــــفزيون يا تلـــــفزيون

" عـم إبـراهيم " كـان أول مـن اشـتراه. زغـردت العجـائز والبنـات، عنـدما تباطأ الحانطور أمام بيته. تركنا " كرة الشراب " متقافزين حول البغل، بينما السائق يلحّن بقدمه :" تلفزيون يا ....." كان مندسًا في كرتونة كبيرة. تنصتنا وراء الباب : لا شيء.

*****

- التلفزيون اشتغل..

تركنـا الكـرة، لصـياح ابـن عـم إبـراهيم. كائنـات متراقصـة يجمعهـا الأبـيض والأسود، من صندوق غامق، مرفوع فوق الدولاب. كنتُ ملتصقًا بأخي المتصلبة عيناه. لم ألتقط سوى نتفات بسبب قفا الولد " متولي ". " كيف احتوى هذا الصندوق على هؤلاء ؟

ضحكتُ مثلما يضحكون.

" الفيلم بقرش " قرر عم إبراهيم. عدنا للكرة وللسبع طوبات. عصر الخميس فقط، نلتف صامتين حول الفيلم.

*****

" مئة جنيه " ادخار أمي في جمعيات ممتدة. تحلم بشراء أرض، ثم بيت فوقها، لننجو من شقتنا المؤجرة. قال أبي : " نشتري تلفزيونًا.." تقافزنا أنا وأخي.

مراجعة أمي له. قال : " الأرض، والبيت يحتاجان فلوس وفلوس ..."

وفي ظلمة الليل، ومن الزاوية الخلفية لحارتنا، تهادى الحانطور. كانت أمي تخشى الحسد. وفوق الدولاب استقر التلفزيون. تكتمنا الخبر عن عيال الشارع، وأدركوا بعدما اختفينا عن لعب الليل.

*****

..... حتى على طبلية الغذاء نبحلق، لقطات إسماعيل ياسين، وراقصات فريد الأطرش ومحمد فوزي. مسلسل " إبراهيم الطائر " أترقبه طوال اليوم، في رمضان. وفي لقائنا مع عيال الشارع كنا نغني الإعلانات.

*****

" عنترة بن شداد " فيلم يوم الأحد. عددنا الدقائق فالساعات، ثم تصلبنا على تطاير الرقاب وقعقعة السيوف. شهقتُ وسألتُ أبي عن السهم الذي نفذ في رقبة أحدهم. صمت أبي مندهشًا. مع انتهاء الفيلم، أمسك كلٌ منا بعصا، وامتلأتْ الحارة بطقطقة العصي. اختلفنا فيمن سيكون منا عنترة، اشتدت المعركة بيننا نحن " العناتر "، وعندما رأيتُ العيال الطوال، انسحبتُ كعادتي.

*****

أثناء انتظارنا للمسرحية، قال أبي : " كان أول تلفزيون دخل الحي، ملكًا للأسطى " توفيق " المكوجي، كان قد اشتراه من رجل من القاهرة، أخذه بالقسط.."

المذيعة، بدء المسرحية ...، الإعلانات، أردف أبي :" كنا وقتها في أوائل الستينات، نتجمع عند

" توفيق " ونتكوم مثلكم أمام مسرحية " إلا خمسة " وعادل خيري و....."

أتوماتيكيًا، تحولتْ عيوننا مع انفراجة الستار، نقرقر على أي شيء.

*****

قال الولد " ناصر " لعيال الفصل : " أبي عاد من السعودية، وأحضر تلفزيونًا ملونًا ...."

عيوننا نحوه. أردف : " يظهر فيه الناس بألوانهم الحقيقية، وليس أبيض وأسود ..."

واعدناه على رؤية مباراة الأهلي والزمالك عصر الجمعة. بتعالٍ هتف :

- ستشاهدون الملعب أخضر، والاهلي أحمر..

وعندما عدتُ قال أخي مستخفًا :

- قهوة " جابر " التي تجاورنا اشترته.

غاب " ناصر " عن اللقاء أمام المدرسة. دفعتُ ثلاثة قروش لاعتلاء أحد الكراسي في المقهى.

في اليوم التالي أقسمتُ لعيال الفصل على رؤيتي للأهلي الأحمر.

*****

يضرب أخي الأصغر مفاتيح التلفزيون كلما عاركناه، تغيب الصورة، ويلعب أبي فيها بعدما يفك مقدمة الجهاز.

شتمني الصغير مرة، فأتحفته بعلقة بالحزام، وأتحفني أبي بعدها. كانت ضربته هذه المرة، سببًا في هزة رأس الكهربائي بأن : " لا فائدة ".

طالعنا الشاشة البيضاء بخرخشتها.

عرفتْ أقدامنا بيوت الحارة - على الأقل - يومي الأحد والخميس، وعاد أبي للمقهى.

أسابيع وتهادى الحانطور من الزاوية الخلفية، بعدما باعت أمي ذهبها واقترضتْ عليه، قائلة :" العيال فضحونا في الحارة، والرجل معهم ..."

(٢)

أعتاب الثانوي : الصوت الخشن ونبت الشارب. الهمسات السرية في الحارة والفصل عن مشاهد الراقصات وغرف النوم والقبلات ...، عددتُ لقطات فيلم أحفظه، عن الزوج العائد والزوجة المتهيأة.

*****

الصيف وحرّ الليل، التفزيونات على العتبات أمام البيوت، أو فوق الأسطح. حصيرة افترشناها فوف سطح بيتنا. أراهن أخي على ما سيحدث في اللقطة

التالية. أرقب الحارة مستندًا على سور السطح. الأجساد المتكومة في الشرفات.

البنت " زوبة " ممددة على الكنبة، حدقتاها على الفيلم.

تهمس الغجرية للخادمة أن تتفنن حتى تسقط " البيه ". تلاقت أحداقنا.

اشتدت أنفاسي ؛ حين تلوّت " زوبة " مبرزة .....، صارت لغة بيننا.

(٣)

الجيش وأيام المخلة والليالي اليتيمة. ليلتان راحة من الخدمة في الأسبوع.

أتقلّب بين عنابر العساكر و" الكانتين ". حرارة قيظ النهار اختزنتها الرمال، وها

هي تنضحها ليلاً، تضاد بها نسمات الصحراء. خندق النوم حبس قدرًا منها.

الكانتين وتلفزيون العساكر المشوش. الزوجة المتمنعة في المسلسل على الباشا.

" يقول " زينهم " : "امرأتي حلالي، خمسة أسابيع لم ... "

جذبني محمد البرنس، دبتْ أقدامنا، سكن الضباط، البوستر والتلفزيون الملون،

لقطات قناة "سيجما"، تأوهات الضابط " هاني "، استعاذة العميد " فاروق "،

ذكرياته عن ١٩٧٣، للولد

" إمبابي " المطأطيء له.

- في الثانية صباحًا، تدخل قنوات إسرائيل .... قال.." هاني ".

(٤)

السنون ، سكن المدرسين الحكومي في دولة بالخليج..، جهاز واحد في الصالة السفلى، الخناقات حول القنوات.

تتكاثر الأجهزة في الغرف، الأجساد الممددة تحت المكيف. نصف الدوام عن العربسات وسوني وديسكفري.

في مقهى، لقطات مسجلة من قناة تركية، العمال البنغاليون والأعين النهمة. لمح النادل بعض من الملابس الكاكية، بالريموت قلّب إلى المحطات المحلية. ظللنا نعد الدقائق، حتى انصرفت البدلة الكاكية ....

آيس كريم على الأسفلت

تـدفعُ صـندوقك الأبـيض، الـذي احتـل مقدمـة دراجتـك، وأنـت قـابعٌ على مقعـدها، ضـاعفتَ عمامتـك الصـعيدية ممسـكةً بحـوافِ رأسـك. هـل تسـكن غليـان خلايـاك تحـت أشـعة أغسـطس ؟ تحـاول اختـراق الأشـعة المتكاثفـة ببصـرك. تسـاؤل من لسـانك المتجمد بحنكك : لماذا لا يتزحزح هـذا القـرص من مكانـه منـذ الشـروق ؟ يتعقبـكَ منـذ هروبـك الفجـري، إلى الشـوارع المسـفلتة، تتلاقى نهاياتها مع الأشعة، فتلتمع سرابًا.

يركض صندوقك، بضغطك على بدّالة دراجتك، وعقيرتك تشرئّب منادية على " الآيس كريم ". توقفُكَ مع إشارة صبيان، انفتاح الصندوق، نسمات ثلجية، قوالـب الحليـب المتصلب. يعـودون لأبنيتهم الخراسـانية، بزجاجها الكاتم لهـواء التكييف.

أصـوات " كلاكـس " سـيارة، زجـاج يمـرق لأسـفل، يلسـعك هـواء مكيّفهـا، اقتضاب الكلمات، الزجاج صعودًا، ثم يذوب الصاج اللامع على الأسفلت.

تنقلك، وأنتَ تعي أن الزجاج لا يبتلع عقيرتك، التي ترفعها.

*****

الليـل، المراتـب الإسـفنجية المتلاصـقة، أجسـاد غارقـة في سـجائرها، الأصـوات الزاعقة، من الغرف التي كانت فصولاً لروضة أطفال.

" أبوحسين " نفخات من " المارلبورو "، همساته في المسجّل، يحلف : لن يخطوَ تراب البلد، قبل عقد لأخيه معه ".

أتأمل الطلاء المقشر، كجذوع شجر، هواء المكيف " المزنوق " عاليًا، كنحيب رجل. " ستمائة دينار ثمن التأشيرة " " التأشيرة حملتْ بيتًا وأفدنة وعزوة " أحكم ربط لاستي، العرق اللزج يجف مع النسمات المصنعة، ليل النجع واللب والتحطيب. " التأشيرة تساوي ذهب الولية وقيراط أرض "

تعبّقني رائحة " البيصار " من المطبخ الذي هو نصف الحمام المفصول بلوح خشبي.

أتقولب، " وحشتني أم العيال، استحال جسدها إلى طيف، أذكره مع صوتها في الشرائط ".

عيناي تكتفي بالأجساد المتراقصة بالتلفزيون، وابتسامات الخادمات البنغاليات، وهن يحملن صغارًا.

عنفوان الليل، النوم يأبى.

*****

شقشقة الفجر، الجلبة، طابور الحمام، الدراجة، متعهد التوزيع، يعبّيء صندوقه، عقيرته المبحوحة، يتيه على الأسفلت.

حسيس الأوقات

[[..... في أوبتي الشهرية، من معسكر الجيش : كان ابناي يلعبان أمام دارنا، تلفتُ، فلم أجدها، قادتني قدماي، الغرف الصامتة، حسيس من غرفة أبي، تصلبت قدماي، كانت واقفة ممسكة بطبق كبير، تضعه أسفله، وهو في اضطجاعه الثابت. تأوه، أشار لها، بكُهْنَة قديمة راحت تنظّف بينما أغمض عينيه براحة.

- لو كنتُ أنا لما فعلتْ ذلك ؟

جاءتْ زوجتي ، تهللتْ : - متى حضرت ؟

-منذ قليل.

- ماذا بك ؟ إن الدموع بعينيك.

.....

اقتربتْ مني، بينما لا أزال أتكتم .....]]

(١)

-إلى أين يا جميل ؟

نظرت إليّ بهدوء، وهي تسير بين الأشجار الكثيفة، وكانت ابتسامة – لم أفهمها – تتخاتل على شفتيها.

-ألم تجد إلا ابنة وزير .....

يد على قفاي، كان يرتدي المعطف الأصفر الطويل. ابتلع شحوبي دهشتي، والرجاء في عيني.

-لا تزال تلميذًا، يا ابن ال ....

أفلتَ قفاي، جريتُ، اكتفى بمواصلة السباب، ركبتُ الأتوبيس النهري، من مرفأ القناطر.

*

توقفت السيارة عند بلدة " الناطور "، الولد " عليش " ينتظرني بالحمار. يجري خلفي، نظرات النسوة في الحقول، وهن يدارين وجوههن بأيديهن. العزبة ثانية. أبي أمام الدار، حييته، ردّ مبتسمًا :

- أهلاً بخوجة المستقبل.

أخذت أمي البدلة وعلّقتها، نظرتُ في المرآة وأنا أرتدي الجلباب، أحمل نفس ملامحها التي تقول إنها من جدها التركي.

تحلقنا حول طبلية العشاء، الإنهاك في عيون إخوتي العائدين من الغيط، وهم ينظرون لابتسامتي الدائمة. تشاغلت بالمضغ الهاديء.

*****

في " خُصّ " الولد " عليش " نتجمع، الدخان و قفشاتي. قلتُ بعد أنفاس :

-أكبر خسارة من تخرجي من معهد المعلمين هي مشواري اليومي إلى " مصر ".

- لأن عينيك .....

هناك حياة. هربت مرة من المدرسة، وحشرتُ نفسي في أتوبيس وسط البلد، كنت ذاهبًا لشارع عماد الدين.

نفخة مني، عيونهم حمراء.

التصقتُ بامرأة، يظهر أنها من الريف، ظلت طوال الطريق راضية، وعندما نزلتُ في المحطة، أسرعت لأقرب مراحيض، وأنا أخفي ما في وسطي من الأمام.

قهقهاتهم. وحين انسللتُ إلى داخل البيت الساكن بنيامه، جاءني صوت أبي يسبني.

*****

كنتُ الوحيد الذي يخرج من العزبة للتعلم في.. مصر، الحمار، ثم تعلقي بسيارة شركة كافوري، ومنها إلى القطار الذي يقف عند بوابة المعهد.

*****

- عاوز الحلاوة الكبيرة. قال البوسطجي.

استفهم منه أبي المتكيء تحت شجرة الكافور.

-أحضرتُ مظروف تعيين " عبد السميع " أفندي.

فتحتُه، ... إلى مدرسة " الناطور " الابتدائية.

قالت أمي بعدما زغردت : - العروسة في انتظارك.

*****

[[حملته على ظهري، أجلسته بجانب شجرة الكافور أمام دارنا، تطلع بعينيه الرماديتين إلى المساحة الخضراء الممتدة بلا نهاية، وتلتمع الأشعة على تموجات النيل في سيره الهاديء. قال :

-هل يستمر إحساسنا بأنفسنا بعدما يتآكل الجسد ؟

.....

حيث أتحرر من مستلزمات طعامي وشرابي.]]

(٢)

في المدرسة الابتدائية : أقابل نفس مشايخي وأساتذتي، بعضهم يلبس الكاكولا، وآخرون بالبدلة والطربوش. قال الناظر - أستاذ " أبو المكارم " - كأنه فوق منبر:

-نرحبُ بكَ زميلاً، بعدما كنتَ تلميذًا عندنا، فنِعمَ الغرس والثمرة.

الجدول : صف أولى ثالث.

الفصل في طرف المدرسة، بجوار الغيطان. أمكث فيه طوال اليوم.

*

عصر الخميس، أذهب مع أخي إلى السوق، لمعاينة البقر. قال لي أخي :

قف أول السوق، والتقط بقرة من أي فلاح قادم، وتشطر معه في الثمن، ثم اتركها معك إلى عز زحمة السوق، واعرضها للبيع. المكسب أقله جنيهان أو ثلاثة.

ارتبكتُ مع أول تجربة، ولكن للنقود طعم آخر، عندما أجلس ليلاً مع شلة الأنس.

*****

الأسابيع والشهور تتوالى.

صباح يوم " سبت " مشبع بسهر. عند التوقيع، غمغمت بالتحية، قال الناظر :

-صباح القطران.

وأمام المدرسين، رفع عقيرته :

-تخيلوا يا مشايخنا الأفاضل، الأستاذ " عبد السميع " ماذا أبدع في فصله ؟

انزويتُ في طرف الحجرة، بينما الجميع يبحلق. أردف الناظر:

-جاءني أحد الفلاحين أمس، يشتكي ويقول : إن المدرسين جعلوا مدقًا وسط حقله، من كثرة هروبهم من فصولهم. طبعًا أنكرتُ ودافعتُ، فأخذني بعد صلاة الجمعة، وأراني المشهد في الطبيعة. بجوار فصل أولى ثالث.

التفتَ نحوي، قائلاً بابتسام :

قل لي - بالله عليك – كيف أفلحتَ أنت تخدعني، بينما صوت أولادك يصيح دائمًا بالقرآن والأناشيد ويصل إلى مكتبي طوال يوم الخميس.

ضحكتُ طربًا ؛ فالمصيبة قد وقعت، ووجدتُ لساني يقول :

كلفتُ ولدين يقفان أمام الفصل، يقولان، والعيال تكرر وراءهما، وأنا أقفز من الشباك.

- وأين تذهب ؟

بتمايل قلتُ : -إلى السوق، مكسب يوم بنصف المرتب.

ضحكاتٌ عالية من الجميع، مع تجهم " أبي المكارم "، لولا هرولتي، لكان قد أكلني بأسنانه التي سمعتُ صرير غيظها.

- تحقيق وخصم ونقل في انتظارك.

*****

في مندرة منزلنا، عذاء حافل لأعضاء الهيئة التعليمية في المدرسة، وأبي ينادم الناظر، الذي انفرجت أساريره، وهو يغوص في اللحم الأحمر والأبيض.

قال أبي بعدها :

" الصايع " لا يلمه إلا الزواج.

*****

كانت العروس – قريبة أمي التي وصفتها صورة وصوتًا بدقة من قبل – في الثالثة عشر. احمرار الوجه عندما رأيتها في المرة الوحيدة، كنتُ جالسًا متضايقًا من ربطة العنق.

ليلة العرس، البكاء منها عندما خرجتْ من بيت أهلها.

غرفة مستقلة في بيتنا. الملل من روتينية الحياة.

شاركت في جلسات الزملاء في المدرسة، وتحتل أنباء الزواج نصيب الأسد من تلميحاتهم.

(٣)

قال الناظر بإشفاق :

-يؤسفني بالغ الأسف أن أنقل لك..

" ماذا وراء خطبته تلك ؟ "

-وصل خطاب مسجل من وزارة الحربية باستدعائك للجيش ...

-ولكن، موعدي العام القادم !؟

- ظروف النكسة، استلزمت دعوة كل قادر على حمل ...

أردف : - مرتبك مستمر طوال فترة تجنيدك، كما وعد الرئيس.

*****

[..... نظر إليّ ابني الذي تعلّق بجزع شجرة الكافور، حمل لوني الأشقر. قال أبي :

مثلما تتناسل الأجساد.. أعطيته كوب الشاي.

أردف : _ ..... هل تتناسل الأرواح ؟

قد تتشابه الطباع.

إننا نفخة كريمة لا تتكرر ثانية.]]

*****

(٤)

وقفنا صفوفًا، المخلات على ظهورنا، اتجهنا إلى العنابر الخشبية. مرتبة قطنية لكل فرد. يقودنا " شاويش "، ينظر بزهو إلى الشرائط الثلاثة على ذراعه.

الطوابير، الشمس التي أحالت وجهي للاحمرار. أنتظر الليل، الكانتين والمذياع، وساعات الظلام المشبع بهواء الرمل.

*****

بينما كان يمرّ بين الجنود، تسمّر أمامي الضابط، طالعني حتى الأسفل. أمرنا بالتحرّك، أحسسته يراقبني. توقفنا بالأمر. أشار لي.

جندي مجند عبد السميع قطب حميدة يا أفندم.

سآخذك إلى مركز تدريب المعلمين.

قال لي الشاويش :

أمك دعت لك، بالرغم من أنك " فرحان بنفسك ".

أين سأذهب ؟

سيرحمونك من الخيام والطبخة السوداء في الصحراء.

*****

استدعاني قائد مركز التدريب، نظر لي :

خلقتك مفصلة على الميري . معك مجموعة عساكر جدد، أريد تدريبًا، أعرضه أمام قائد المنطقة العسكرية.

أديت التحية. كنتُ أحلم بشيشة وقعدة نكات.

*****

تعهدتهم، عساكر جاءوا بالجلاليب والطاقيات. حين مرّ القائد بي :

-أنت تدلع العساكر، وسأدلعك أنا بطريقتي.

- إنهم يمشون الخطوة المعتادة جيدًا يا ...

- يبدو أنني سأعيدك إلى الكتيبة في الصحراء. أريد رجالاً وحوشًا.

*****

انتهت ابتسامتي الدائمة لهم، لقبوني بالشاويش " الأحمر "، تعمدت المرور أمام القائد بالعساكر وهو يحتسي الشاي. مشيت أمامهم.

-ولد يا عبد السميع.، مشيتك تشبه مشية اللواء. أجازة أربع وعشرين ساعة.

*****

[[... رأيتها تحمله على ظهرها إلى الحمام كي يستحم، وتدلف معه. قال بعدما استرخى على حصيرة في الأرض :

-امرأتك تسترني قبل أن تمد يدها لتنظفني.

همست لها بتردد ليلاً :

-سأحضر خادمة لأبي.. بدلاً ....

نظرت ببراءة، وقالتْ :

-شكوت لأبي منذ أن مرض أبوك، فقال : من تحمليه في شيبته، ستجدي من يحملكِ في عجزكِ.

قلتُ له، وهو في إطراقته جانب الكافورة :

-سأخدمك بنفسي طوال أجازاتي.

٠ فازت بي امرأتك.

- أنا أولى.

تنام بعيالها في غيابك على مرتبة بالأرض.. مريض البول السكري مثلي، يحتاج .... كل ساعة]]

(٥)

في العرض العسكري السنوي للفرقة، مشيت بخطواتي المزهوة أمام المنصة المزدانة بالنسور والسيوف والنجمات على الأكتاف. أحسست بهم يطالعونني، كان قوامي مشدودًا. بعد العرض قال القائد : - ولد يا عبد السميع، ستذهب إلى مقر قيادة الفرقة ...

-لماذا، يا افندم ؟

- طلبك سيادة العميد هناك.

*****

الدنيا في صفي دومًا، وكما وصفوني في البلد : " أنا المحظوظ، والحظ في أقدامي ".

*****

أيام على وصولي للفرقة الثامنة مشاة، قضيتها بين العساكر القدامى. التفوا حولي للنكات والقفشات، قال أحدهم ويدعى " خضر الحدِق " :

-لك في الكيف ؟

نفيت بهزة رأسي.

-شكلك خام، بالرغم من أن كلامك كله " حداقة ".

قلتُ له، وهو يمرّ معي في الظلام على عساكر الخدمة الليلية، وشارات ترقيتي لدرجة " عريف " تزدان على ذراعي :

-هل في الجيش ... كِيف ؟

-لك فيه ؟

-نعم. ولكنك قلتها أمام العساكر.

- تعال معي.

سرنا طويلاً حتى وصلنا إلى كثيب رملي، عرجنا خلفه، أشعل عصًا، لمحت بقايا الفحم.

أخرج من حفرة لفافة، وكانت سيجارة ذكرتني بالخص وعليش، واشتقت لكوب شاي.

*****

أومباشى عبد السميع، مهمتك هنا تدريب العساكر، ومراقبتهم.

- تحت أمرك يا ....

- هذا مؤقتًا.

الفأر يتقافز في أمعائي.

*****

وراء الكثيب الرملي، قلتُ لخضر :

-ألا يعرف أحد بخبر الكيف ؟

- البعض يعرف، ولكن هل يقدر لسان أن يتحرك.

أردف : أحضرته لبعض الضباط.

*****

-عبد السميع..، خذ أربعين جنديًا، واركب القطار العسكري إلى اللاهون في "بني سويف " وهناك تذهب إلى صحراء " هوارة "، لتحتل الجبل، وتقيم معسكرًا.

ابتلعت الكلمات، قرأ وجهي، أكمل :

-اخترتك، فأنت موهوب في القيادة، والجميع رهن إمرتك.

" كأنني خلقت مبرزًا "

*****

جمعتُ العدد، وعلى رأسهم " خضر ". صرختُ فيهم :

-كل واحد بالشدّة الثقيلة، وسنأخذ خيامًا وأسلحة.

تسارعوا، قال خضر :

-يا ابن الـ... أتحرمني من " عزوتي " هنا؟

-وهل أحرم نفسي من قعداتك ؟ سأريحك، فأنا القائد.

*****

نزلنا من القطار، كانت عربات الجيش في انتظارنا، توقفت عند آخر المزارع، تقدمنا، وعندما وصلنا بصحبة أحد الأعراب إلى الجبل، كانت أرجلنا تحترق في " البيادات ".

استلقينا، حتى ضوء الصباح.

*****

انتهى الطعام، نظروا لي، قلتُ : اهبطوا القرية القريبة، واحضروا بالقوة إن لم ينفع الذوق.

سيأتي الغذاء قريبًا، عندما نحدد مدقًا في الصحراء لسيارة التعيين.

*****

الليل، الكتيبة معي في الضحك، وخضر نجم السهرة.

*****

-من أين حصلت على هذا الكيف ؟

قال خضر :

ما دام هناك بشر، فهناك مساطيل.

*****

وصل القائد مفاجأة، هتف بي:

-أنت أومباشى رائع.

- كله بتوجيه من سعادتك.

*****

قلتُ لخضر : أيهما أفضل : هنا أم الفرقة ؟

-أنا عاوز أُدفَن هنا، جانب شجر الأفيون المزروع هناك في بطن الوادي.

*****

القائد في زيارته التالية :

-المرة القادمة، أريد سورًا شائكًا، وستبنون غرفًا للضباط.

أردف : - ما هذا الذباب والناموس..؟

-من المزارع القريبة يا افندم.

- لا، من مزارعنا نحن يا ...، العساكر جعلت الجبل مرحاضًا يا نائمًا.

- يا أفندم، ولكن يا ...

- مكتب ومحاكمة ... لوجدت ذبابة.

جمعتهم، صرخت وسببتُ فيهم، كان تهديدي هو الزحف على الرمل الساخن. تدافع فريق منهم لحفر خندق، والآخرون جمعوا مخلفاتهم في أكياس.

ارتكنتُ بخضر الحدق، قلتُ :

-ما رأيك يا حدِق ؟

- أنت لواء، بل قائد عام كما أسمع في الراديو.

ضحكنا لهؤلاء المتنافسين على ملء الأكياس بالتقاط ...

*****

[[- ألم تكن شقيًا في شبابك ؟

الحياة مثل الشجرة لا أكاد أميز منها سوى انحناءتها.

.. عندما تشيخ.

هي قد تساوت مع البداية.

دواعي الدهر.

أحلم بخلود، لا عجز فيه]]

(٦)

ضابطان بالكتيبة في الغرف الطينية.

قال خضر :

-لا أعرف من قال لهما أنني أحضر ...

- يبدو أن لون الدخان الأزرق قد تحول إلى هباب.

- ماذا عنك ؟

-صرت بلا قيمة، أجمع الطوابير، ولا كلمة لي على عسكري.

*****

قال أحد الجنود لي :

-احتجزوا خضرًا عند البوابة.

.....

قمتُ مندهشًا، قلتُ :

-كنت سآتيك في السجن بالعيش والحلاوة.

لم يجد الضابط شيئًا.

- فتشك ؟

خلعتُ كل ملابسي، ما عدا ...

*****

نفخت في السيجارة ليلاً، هتفتُ :

-بلا طعم.

هذا بالنسبة لك وحدك.

-أتشربها وأنت تحلم بالكيف ؟

ناولني سيجارة، وقال : - اشرب، واحلم أنت أيضًا.

امتصصتها ، قفزت :

-يا ابن الـ... كيف أحضرته ؟

-بعبقريتي.

-لقد نزعوا ما يسترك.

- كان موجودًا بشريط لاصق أسفل ...

*****

في إجازتي الدورية كل خمسين يومًا، ليلة يزاحمني فيها بطن زوجتي المنتفخ، هزتني، فتحتُ عيني بصعوبة : - الوجع..، الوجع يا ...

-سأحضر الداية.

أدخلت نفسي في الجلباب، وأنا أفتح الباب الخارجي للدار ...

-الحقني ... الحقوني ...

عدتُ : - ماذا بك ؟

-العيل في حوضي.

همهمتُ..

-ساعدني..

كانت رأسه بارزة إلى دنيانا. حيرتي.

-اجذبه، بتمهل.

انحدرت الرأس على كفيّ، الحبل الأبيض.. تقول:

-المقص ... قصه، اربطه على بطنه.

صرخة الحياة.

قالت الداية بعدئذ : - يدك كلها بركة يا أستاذ.

*****

[[- لقد اعتقلتَ من قبل سنتين يا أبي، ندمت عليهما ؟

الحق بطعم الخلود.

واللذة ؟

يعقبها التأفف.

والزوجة والصحة والولد ؟

لو كنتَ مكاني، وانتظرتَ من يأتيك بما تبول فيه لعرفت.]]

(٧)

خطاب التسريح جاءك يا عبد السميع.

- لن نحارب ؟

نفّذ، بدلاً من الفلسفة، المرأة تنتظرك.

*****

كتبت الجرائد، وهللتُ في البيت، انتهت حياة ....

*****

شيخ الخفر، ينادي :

أستاذ عبد السميع..، سلم نفسك للوحدة، جاءنا مكتوب.

*****

قال خضر :

ملعوب، وعدتُ ثانية لوكري.

قلتُ : ملعوب على من ؟

*****

انتقلنا بمشاة الكتيبة إلى غرب القناة.

تزعّمتهم، وهم يحمون ظهر العابرين للقناة، حقيقة كدتُ أتناساها : الأعناق تتطاير، الدماء تنتثر على وجهي، جمعتُ الأشلاء، أجساد مثل جسدي.

[[يقول أبي :

الخلود يسحق كل شيء.

أسأله :

هل استشعرتَ طعمه ؟

يقول :

أركض وراءه كل لحظة، إنه لا يراوح مكانه من بعيد.

كيف تتذوقه ؟

أهفو لطاقة ضياء تشدني]]

فتحية لم تأتِ

من الكوة التي ملأت فتحتها عدة أسياخ، راح يراقب الفلاحات في الحقول، بينما تدلت بعض أغصان شجرة الكافور العتيقة ؛ تخفي الكوة الطينية من الخارج. ينقّل بصره عبر الوريقات الخضراء الطولية، التي تتراقص أمام مجاله البصري، بفعل رقة نسمات البكور. أين فتحية ؟ لا أراها بينهن ! "شلبية " وزعيقها وهي تتحدث. تقول فتحية عنها : " لا يتوقف لسانها، حتى لو أقفلت فمها".امتدت يده تكسّر بعض الخبز، ثم ألقتها في الإناء النحاسي المملوء باللبن، " فتة العيش " التي أعشقها منذ حبوي. يرنو عبر الكوة، انحناءة العجوز " عبد السميع ". يقاربني في السن، منحنٍ هو أم هذه هي السنون ؟ لقد شاخ قبل أوانه، بفعل زوجتيه، وعياله العشرة. كانت " فتحية " تضحك، وهي تروي منظر تحلّق العيال، والمرأتين حول الطبلية، بينما " عبد السميع "يأخذ طبقه وخبزته وينزوي بعيدًا، يأكل ويبتسم لهم، ويقول : كل واحد من عيالي العشرة ولِدَ ورزقه قيراط أرض،رزق الخالق. تتعجب فتحية : " زوجتاه لا تختلفان على شيء ". يلتقف بعض الكسرات الملبّنة. بقرتك انتفخ ضرعها يا فتحية، هذه المرة تأخرتِ عليها. يقلقه السؤال : أسبوع ولم تأتِ ؟

ينتهد، فالسنون أثبتت أن الصمت بلا فكر، يساوي نفس مشقة الفكر. اختار الأيسر، وارتكن إلى كراسة باهتة الغلاف، يخطّ فيها بعض الآيات من المصحف.

*****

صياح خفير النظامية، مع المغربية، من وقفته بساحة الدار :

- يا أم فتحية، يا أم ....

ترد أمه من جلستها، تحت الجاموسة.

- نعم، يا عم عبد العالي..

- ابنك سويلم..، لابد أن يروح للجهادية.

- لمه ؟ لا يوجد في الكفر إلا هو !

- الحرب قامت..، والحكومة أمرت بجمع كل رجل عليه الدور.

نهضتها، ضربتها على صدرها. " سويلم " ينزل حاملاً لفة حطب من السطح. اصفراره، لاصفرار ملامح أمه.

- ليس عندي إلا هو. أخوه الثاني، أبله..

الخفير وهو يغرف كوبًا في قدر الحليب: - أخوه المبروك الأبله محسوب رجلًا على الدولة.

ترد بسرعة : - خذ أوزتين، مثل المرة الأولى، مثل المرة الأولى.

- المرة الأولى رضيت، ولكن المرة هذه حتمًا ولابد أن ....

سويلم يرتكن جانبها، تتحسسه. الخفير يشدّه.

- لازم ولابد أن تأتي معي، ولو تأخرتْ سيأخذونك للسجن.

تخلّصه من يده. تفك كيس النقود المودع بصدرها. عشرة قروش في يد " عبد العالي ". يهدأ :

- بعد يومين، سأمرّ عليك، ونذهب للمركز، ومنه للجهادية، كلها ثلاث سنوات وتخرج.

*****

نزل من " الصندلة "، متحسسًا السلم الخشبي الخفي، أخفض ظهره وهو يعبر السرداب الضيق. لابد أن أحلب ضرع البقرة ؛ صياحها يعلو، فتحية أوصتني بذلك، إذا تأخرت. البقرة هي الغطاء الذي يخفي قدوم " فتحية " إلى تلك " الزريبة " في طرف الكفر، والتي تواجه قراريطنا الستة. لقد حارب أبي في شبابه حتى حصل عليها، وحلفتْ أمي ألا تبيعها، إلا وقت عرسي.

هدأة البقرة، وهو يتحسسها، خوارها الهاديء وأصابعه بحلمة ضرعها، اللبن الدافيء.

*****

تهمس الأم :

- لا يمكن أن تذهب للجهادية. أنت دنياي. سترفع رأس واسم أبيك. أخوك أبله.

تطلع " سويلم " لأخيه المرتكن جانب الفرن، وقد راح يقضم خيارة، ويغمغم بصوت أجش. وجهه مربع، بأنف أفطس، وشفتين غليظتين. يتلقى الضربات على قفاه، حين يخرج إلى الشارع.

أردفت أمه :

- لا يمكن، سأخفيك عن عيونهم، يقولون إن الحرب قائمة، والناس تحكي : إن التوابيت بدأت تأتي من بلاد العرب البعيدة، و العساكر تحارب اليهود.. ما لك ومال اليهود الملاعين ؟

يصمت، ينظر إلى " فتحية "، أوشكت على الزواج، من ابن خالتها، " صبحي "، من سيبقى في البيت ؟

- كيف يا أمي ؟! والمخبرون في كل مكان.

- سأخبئه في بيت خالك " حميدة " المهجور، وأقول إنه قد هرب للبندر، عند أعمامه، لأنه كاره للجهادية.

فتحية : ونخبئه بالبقرة والحمار، ونقول إننا وضعناهما جانب غيطنا.

الأم : و"حميدة" أخي لا يأتي للكفر منذ أن عمل فراشًا في جامع بمصر. وسأقول له على السر.

*****

يدلف للكنيف، حفره بنفسه، وستره بألواح خشب، ووضع مكان أقدامه قوالب الطوب. فكّ الغطاء البلاستيكي، فتسربت قطرات الماء، من ماسورة موصولة بالترعة الجارية وراء الزريبة.

قضاء الحاجة، والوضوء للظهر، الطقوس المحفوظة. انقباض صدره. فتحية؟

الصندلة، القبلة، أصوات الفلاحات، من الكوة، مخرخشة لبعدهن. الركعات الآلية. الدعاء، ثم تقبيل ظاهر وباطن اليد. يعود لاستنساخ بعض الآيات من المصحف، أحضرته أمه، وقالتْ :

- البركة فيه، ومنه. لابد أن تكتب منه كل يوم.
- لا أعرف القراءة و .....
- أنت تحفظ أجزاء..، لا تكف عن ترديدها، حتى ينسوك، وتخرج لنا.

*****

عشرة أيام، وفتحية لم .....، الكوة، الأحاديث همسات من بعيد، هاهي البنت " توحيدة"، رفيقة " انشراح " ابنة فتحية، وأين انشراح ؟ إنها .....، ولدت وأنا هنا، وكبرت، وتزوجتْ من الولد " أمين " ابن " أحمد أبو إسماعيل "، أبوه كان قد راح إلى الجهادية، وعاد يحكي للناس عن الفلاحين الذين حاربوا بالجلاليب

والنبابيت ، وشباب مثل الورد كانت تحصدهم طيارات اليهود. حكت أمي هذا، وهي تحمد الله، أنني لم أذهب، كان من الممكن أن أكون مثل الشباب الذين .....، الرحمة عليها، كانت تخرسني بيدها إذا نطقت هذا،وتمنيني بالزواج من ست البنات.

عاد " ابن أبي إسماعيل " وعاش وتزوج، وابنه الآن يناسب " صبحي " زوج فتحية.

*****

الليل، السراج الباهت،كانت فتحية تقول :

- اللمبة الكهرباء دخلت كل بيت..، الحكومة أوصلت أعمدة النور إلى البلد..

يضحك سويلم :

- ما شكل اللمبة ؟
- منها الأبيض والأصفر .. (تضحك فتحية)، وفيه اللمبات الملونة التي يعلقونها في الأفراح.

عبر الكوة، شاهد لمعان النور من بعيد. البلد باتت تسهر الآن. يسأل فتحية :

- لماذا يسهر الناس ؟ النور مولع طوال الليل.
- التلفزيون في كل بيت.

التعجب منه، تردف :

- صندوق من البلاستيك المتين، وفيه صور تتحرك.

يفغر سويلم فاه، تضحك وهي تتمايل في جلستها :

- ونرى فيه البنات وهن يضعن الألوان..، أشكالهن جميلة.

- نفسي أشوفه.

تصمت، تغرق في الحيرة، تنطلق :

- ما رأيك ؟ أشتري لك الراديو ذا الأحجار ؟

يتذكره، يتحرك من مكانه، نسيه، يشغّله، الموسيقى الخفيفة..، الصوت الخافت، الناس قد يتربصون به..، يسكته، الحوائط والشقوق والأشجار لها آذان.

بعد سنوات من دخوله، سأل أمه، وهي تحضر طبخة الأسبوع :

- أريد الخروج.

- لا يزالون يسألون عنك.

- من ؟

- الخفير عبد العالي، وأقول له : إنك لم ترجع. وأعطيه خمسة أو عشرة قروش.

- أنا محبوس.

- نحن حولك، أنت رجلنا الوحيد..

سنتان، قرر أن يخرج.. ؛ الزواج، المرأة ..

قبل أن يفتح فاه، أقبلت أمه تبكي، فتحية وراءها، انحشرت الاثنتان في الصندلة. انطلاقة فتحية :

- أخوك " المبروك ".. وجدناه..

الأم : محكوم عليّ بالحزن، زوجي، وابني..

فتحية : نزل الترعة يسبح ولم .....، وجدنا الجثة عند الرياح الغربي.

الأم : الناس تعزيني في الولدين..، ربنا يخليك لنا.

الدموع، وكلمات الأم تخيفه، هي حازمة..، كأنها تقرأه، نظرته إليها وصمته .

*****

نفدتْ كميات الذرة والكيزان الجافة، خوار البقرة. الخروج.. والناس المتربصون بي ؟ الخوف مع ارتفاع الصوت، سأحش البرسيم من الغيط، أنتظر الليل، لعلني أرى فتحية، سأعاتبها، ستصرخ فيّ لخروجي، أخبرتني من سنوات، إنه بعد موت العمدة، صارت نقطة شرطة في الكفر، زادت العساكر، و شاهد الناس الضباط تزين أكتافهم النجوم الصفراء. ضربات قلبه.

الليل..، يفتح باب الزريبة. المنجل بيده، الغيط، يقطع باضطراب، رائحة البرسيم في أنفه، وهو يهرول..، الباب المغلق، ترديد الحمد الروتيني.

أنهت الحزمة في مرة واحدة البقرة. لابد لها من حزمات في البكور.

الفجر، القمرة وهي تودع الدنيا، يحش، الهرولة، الدقات تعلو، يتتابع الأمر. البتاو، والخبز الناشف والطري يتناقص من السحارة الخشبية. كانت أمي تخبز لي كل شهر، وكذلك فتحية، لم يعلم زوجها، استحلفتها أمي، ولم تعلم ابنتها ولا أولادها الصبيان..، تلاشى خبري بين كدّ زوجها " صبحي " وسفره إلى " ليبيا " سنوات وسنوات،وبين ابنتها. تقول فتحية :

- يزرع هناك بالمؤاجرة في الواحات، الخير كثير عندهم . والبنتان مشغولتان عنك، ولا تعرفانك.

يجلب كيزان الذرة، الشواء ليلاً، الحليب من البقرة، تستمر الحياة أيامًا، سأضرب فتحية عندما تجيء، حتى لو كانت مريضة، لابد أن تحضر، كانت تتسند على الحوائط، لتراني.

*****

الشمس تملأ الصندلة ؛ سهره الليلة الفائتة جعله يستيقظ متأخرًا، ولج الكنيف، الخوار العالي، أكلت البقرة الحزم التي أمامها. أصوات الفلاحات، يقفن بالخارج.. الهمهمات. يكبس أنفاسه في الكنيف. الخوار يعلو. صوت أحد الرجال. من ؟ أحد المتربصين بي. قد يكون مخبرًا أو ضابطًا. أرأوني ليلاً. الدقات تبلغ أذنيه. يدفعون الباب الخشبي. إنهم بجواره. سيقول إنه ...ماذا ؟

سكون البقرة. الأصوات المتداخلة.

- من كان يؤكّلها ؟

- توجد بقايا حزم البرسيم، لم أرَ بنت فتحية تحضر إلى هنا.

- لابد أنها كانت تأتي. كيف أكلت البقرة، منذ موت فتحية.

- فتحية ماتت، وهي واقفة، كانتْ نعم المرأة، ظلت تعمل وزوجها تركها، وليبيا أخذته.

- إذا رجع، سيجد البيت...

لم تحتمله أقدامه، لقد .....، فتحية .....، إنها .....

يسحبون البقرة، غلق الباب، يخرج، الصندلة المظلمة. الفراغ.

*****

الخروج. سأتحمل السجن. الشمس في عينيه. الفلاحات في الغيط. النظرات الغريبة.

- من أنت ؟

الاستسلام منه.

- سويلم ابن أم فتحية.

العيون تتعجب، التساؤل المعلق.

- سأسلم نفسي. فتحية ماتت.

- وأنت مَن ؟

- أنا أخوها ؟

نقطة الشرطة، يتأمل الجاويش بطنه المتكورة، ومؤخرته المتورمة.

- أنا ..... هربت من الجهادية.

شاب، شعره أسود، العجب في عينيه. الضابط، نجمتاه صفراوتان. ارتخاء سويلم :

- سأعترف..، أخفتني أمي..، في ....

الضابط مبتسمًا :

- أنت تتحدث عن فترة قبل ولادتي.

ظهره منحنٍ، قال :

- كان عمري الثامنة عشر عندما .....، الله يسامح الخفير عبد العالي.

الضابط : - أحضروا بنات فتحية.

الجاويش : - واحدة تزوجت في المركز، والأخرى متزوجة من أمين بن أحمد أبو إسماعيل. وزوج فتحية مات من زمان. وهي أيضًا ماتت من أسابيع.

سويلم : لم تقلْ ل أن زوجها ..، كانت تحكي عنه، وتقول إنه حي. ويشتغل في ليبيا.

عسكري : كانت تخرّف في أواخر أيامها.

- لا.. أختي ست العاقلات.

- زوجها تزوج عليها، بعد رجوعه من ليبيا أول مرة، بعدما هجرها ثلاث سنوات، مشت تقول في الحواري، إنه لا يزال في السفر، وهي تنتظره. وهو غارق في العسل مع امرأته الجديدة.

*****

غرفة الحبس. الجدران الصماء. يتحسسها، تختلف عن طين الصندلة. كانت تكذب فتحية علي. كانت تحكي وتحكي عن كل شيء، أصدقها، وتحلم بزوجها الذي سيحضر لها الفستان والقميص الملون. تركها بعد الزواج بأشهر، وسافر إلى مصر، يعمل بوابًا..، وبدأت تحكي عن الفستان والقميص من ساعتها، ثم تركها إلى ليبيا، ثم إلى امرأته الجديدة.

*****

سيارة الشرطة، يبتسم ؛ أول مرة يركبها.

المركز، الضابط، النجوم أكثر على كتفيه.

- لماذا خرجت ؟
- فتحية ما .... العبرات منه.
- أنا مستعد للسجن. ولا تضربونني.
- لماذا ؟ أنت متهرب.
- الرجل " المجدع " لا يضرب. السجن فقط، أنا موافق عليه.

ابتسامة الضابط، يضحك، والذين معه.

- وكيف عشت طول هذه .....؟

- كنت في الزريبة.

- الحكم سقط بالأقدمية.

*****

- انشراح..، أنا خالك سويلم.

قال، بعدما أخذوه إليها. بحلقت فيه مع زوجها.

غرفة غير طينية، فراش على قوائم خشبية، صينية طعام. يأكل، يده مرتعشة. لا طعم لشيء بدون فتحية. يبحث عن كوة. شباك كبير. هل سيرونني ؟ البيوت الأسمنتية تواجهني. العيون تبحلق في. لا طعم لشيء.

*****

الخطوات المتثاقلة، يسحب البقرة. الزريبة، يربطها، يغدو للكنيف، يعتلي الصندلة، يطالع الفلاحات من الكوة. يوجد بعض الطعم للأيام المتبقية.

يحن لكلمات فتحية، وتمايلها في جلستها، وهي تحلم بالفستان والقميص..، وتنتظر زوجها. يذكر همسات أمه عن عروسته التي ستكون ست الستات، وستبيع من أجل عيونها القراريط الستة.

يبتسم.. ببطء.